مورفولوجيا حكاية البطل في سينما السيرة: نحو نموذج تأويلي هجين لتمثيل سيرة الأمير عبد القادر الجزائري

Morphology of the Hero's Tale in Biopic Cinema: Towards a Hybrid Interpretive Model for Representing the Biography of Emir Abdelkader El-Djazairi

ونسة أيوب*،

[1] جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، ayoub.ounsa@univ-sba.dz

تاريخ الاستلام: 2026/05/09 **تاريخ القبول:** 2026/05/17 **تاريخ النشر:** 2026/06/01

ملخص:

تناول هذا المقال إشكالية تحويل المادة التاريخية، وتحديداً سيرة "الأمير عبد القادر"، من فضاء التوثيق الصارم إلى فضاء التخييل السينمائي. انطلق الباحث من فرضية مفادها أن السينما لا تنقل التاريخ كما هو، بل تُعيد بناءه وفق منطق سردي وفني يهدف إلى تحقيق أثر جمالي ونفسي لدى المتلقي، محولةً الشخصية التاريخية إلى كيان درامي يخضع لقوانين الصراع والتحول.

اعتمدت الدراسة "نموذجاً تأويلياً هجيناً" يدمج بين ستة مناهج سردية عالمية لتفكيك سيرة الأمير وبنائها سينمائياً؛ حيث وظف **مورفولوجيا بروب** لتحديد الوظائف الثابتة، و**تودوروف** لتتبع دينامية التوازن والاختلال، و**جوزيف كامبل** و**فوغلر** لرصد مراحل "رحلة البطل" الأسطورية والكونية. كما استلهمت الدراسة من **سيد فيلد** و**روبرت مكي** و**جون تروبي** أدوات هندسة السيناريو، عبر التركيز على نقاط التحول الدرامي، والسببية، والتحول الأخلاقي الداخلي للشخصية.

كلمات مفتاحية: مورفولوجيا السرد، سينما السيرة، الأمير عبد القادر، رحلة البطل.

Abstract

This article addresses the problematic of transforming historical material, specifically the biography of 'Emir Abdelkader,' from the realm of strict documentation to the realm of cinematic fiction. The researcher starts from the hypothesis that cinema does not convey history as it is, but rather reconstructs it according to a narrative and artistic logic aimed at achieving an aesthetic and psychological impact on the recipient, transforming the historical figure into a dramatic entity subject to the laws of conflict and transformation.

The study adopts a 'hybrid interpretive model' that integrates six international narrative methodologies to deconstruct and cinematically reconstruct the Emir's biography. It employs Propp's morphology to identify fixed functions, Todorov to track the dynamics of equilibrium and disruption, and Joseph Campbell and Vogler to monitor the stages of the mythical and universal 'Hero's Journey.' Furthermore, the study draws from Syd Field, Robert McKee, and John Truby tools for screenplay engineering, focusing on dramatic turning points, causality, and the internal moral transformation of the character.

Keywords: Narrative Morphology; Biopic Cinema; Emir Abdelkader; The Hero's Journey.

* **المؤلف المرسل:** ونسة أيوب **الإيميل:** ayoub.ounsa@univ-sba.dz

مقدمـة:

إن الاشتغال على سيرة الأمير عبد القادر في الخطاب السينمائي يطرح منذ البداية إشكالية مركبة تتعلق بطبيعة التحوّل الذي يطرأ على المادة التاريخية عند انتقالها من فضاء التوثيق إلى فضاء التخييل الدرامي، ومن جهة أخرى بوظيفة هذا التحوّل في بناء الأثر الجمالي والنفسي لدى المتلقي.

فإعادة بناء الشخصية التاريخية سينمائيًا لا تعني مجرد نقل الوقائع كما حدثت، بل تستلزم بالضرورة إعادة صياغتها وفق منطق سردي وفني يقوم على الانتقاء والتكثيف وإعادة التنظيم الزمني والسببي للأحداث، بما يجعل من التاريخ مادة قابلة للتشكيل الدرامي، لا مجرد سجل وقائعي مغلق.

غير أن هذا التحوّل في طبيعة الخطاب لا ينبغي فهمه بوصفه مساسا بقداسة التاريخ أو تقليلا من رمزية الشخصية، بل باعتباره انتقالاً منهجيًا من التاريخ بوصفه ذاكرة جماعية معيارية وثابتة، إلى التاريخ بوصفه مادة سردية قابلة للتأويل وإعادة البناء داخل النسق السينمائي.

فحين تدخل السيرة التاريخية إلى الحقل السينمائي، فإنها تخضع بالضرورة لقوانين هذا الحقل، حيث تصبح الشخصية التاريخية كيانا دراميًا يتحرك داخل منظومة من الصراع والتوتر والتحول والإيقاع، وتُعاد قراءتها من زاوية إنسانية وجمالية تبرز أبعادها الداخلية بقدر ما تُبرز أفعالها الخارجية.

ومن هذا المنظور، فإن الهدف الجوهري من هذه المقاربة لا يقتصر على إعادة تمثيل التاريخ أو تقديمه بوصفه مادة معرفية، بل يتجاوز ذلك نحو إنتاج تجربة إدراكية وجدانية متكاملة لدى المتلقي أثناء المشاهدة.

فالسينما التاريخية، حين تُبنى وفق تصور درامي واع، لا تكتفي بإخبار الجمهور بما حدث، بل تعمل على جعله يختبر الحدث شعوريًا، عبر الانخراط العاطفي في مسار الشخصية وتحولاتها، من لحظات القوة إلى الهزيمة، ومن الفعل إلى التأمل، ومن الصراع الخارجي إلى التحول الداخلي.

وتكمن أهمية هذا التوجه في كونه يحوّل المتلقي من موقع المشاهد السلبي إلى موقع الشاهد المتفاعل، حيث يصبح الانخراط العاطفي **(Emotional Engagement)** جزءًا أساسيًا من عملية التلقي، مدعومًا بإيقاع سردي مدروس يُراكم التوتر تدريجيًا نحو لحظات الذروة والانفراج.

وفي هذا السياق، تتحول كل مرحلة من مراحل السرد إلى أداة لإنتاج أثر نفسي محدد فالبداية تؤسس للتعاطف والفهم، والوسط يكتف الصراع والقلق، والنهاية تُنتج أثرًا تأمليًا يمتد بعد انتهاء العرض، وهو ما يمكن تسميته بـ "الأثر الباقي" **(After-effect)**.

وعليه، فإن تحويل سيرة الأمير عبد القادر إلى خطاب سينمائي لا يُفهم بوصفه مجرد عملية تمثيل أو نقل للتاريخ، بل بوصفه عملية مزدوجة لإعادة بناء المعنى بناء الحدث التاريخي داخل بنية درامية تخضع لقوانين السينما، وبناء الأثر النفسي داخل وعي المتلقي عبر آليات التوتر والتعاطف والتحول.

وبهذا المعنى، تصبح السينما ليست فقط وسيطا لعرض التاريخ، بل جهازًا لإعادة إنتاجه تأويليا ووجدانيا، بما يسمح بتحويل الشخصية التاريخية إلى تجربة إنسانية حيّة، قادرة على تجاوز حدود زمنها الأصلي نحو أفق كوني أكثر اتساعا وفاعلية.

الإشكالية والفرضيات

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية أبستمولوجيا – جمالية تتعلق بطبيعة التحول السردي عند انتقال السيرة التاريخية من التوثيق إلى التمثيل السينمائي، خاصة مع شخصية مركبة كالأمير عبد القادر.

التوتر المركزي: كيف توازن السينما بين الأمانة التاريخية (صرامة الوقائع ومتطلبات الدراما الانتقاء والتكثيف، وبين الخصوصية الثقافية التصوف الجمعي) والدلالة الكونية (رحلة البطل العالمية دون اختزال أو تشويه؟

يُمكن للسينما التاريخية تحقيق التوازن بين المرجعية والتخييل من خلال بنية سردية هجينة تجمع بين مورفولوجيا الوظائف بروب، تودوروف كإطار تحليلي موضوعي، والبنية الأسطورية (كامبل مكي، فيلد، تروبي كأداة تشكيل درامي، حيث تُقرأ سيرة الأمير عبد القادر كـ "نص سردي قابل للتشكل" يحتفظ ببناه التاريخية العميقة مع تكيفه لمتطلبات التلقي العالمي.

كما تُعد البنية الهجينة المقترحة في هذه الدراسة إطاراً منهجياً يجمع بين ستة نماذج سردية مكملة، حيث يستخدم مورفولوجيا الوظائف لدى فلاديمير بروب لتحديد الوظائف السردية الثابتة البالغ عددها 31 وظيفة، فيُقرأ مبايعة القبائل سنة 1832 كـ "عقد التحالف" ومعركة وادي تافنة سنة 1835 كـ "الصراع الأول".

وفق تزفيتان تودوروف، تُحلل البنية السردية المزدوجة بين القصة (التسلسل التاريخي الخطي) والخطاب (الترتيب الدرامي المنظم، مثل إعادة ترتيب حديثة دمشق (1860) قبل الاستسلام لتعزيز التأثير الرمزي.

أما جوزيف كامبل، فيقدم رحلة البطل الأسطورية (17) مرحلة كبنية كونية، حيث يتخذ الغزو الفرنسي سنة 1830 "النداء للمغامرة" وإنقاذ مسيحيي دمشق "الإكسير الكوني".

وفق جون تروبي، تحول الرموز الصوفية إلى وحدات معنوية سينمائية، فلقطات الذكر الجماعي تمثل رمز الفناء" والمعارك رمز الجهاد الجمعي.

روبرت مكي يركز على تطوير الشخصيات الفرعية حيث يُجسد بن سالم "الخائن الداخلي" ولا موريسيير "الظل النبيل"، بينما سيد فيلد يقسم السيرة إلى ثلاث فعلات ممكنة: الفعل الأول (الرحيل)، الفعل الثاني (المبادرة)، الفعل الثالث (العودة الكونية).

1. نموذج جوزيف كامبل

تشكل سيرة الأمير عبد القادر واحدة من أكثر السير التاريخية ثراء وتعقيدًا في التاريخ الحديث، ليس فقط لما تتضمنه من أحداث مفصلية مرتبطة بمقاومة الاحتلال الفرنسي، بل أيضًا لما تحمله من تحولات عميقة على مستوى الفكر والوجدان والتمثل الإنساني . فالمتأمل في هذا المسار، الذي يبدأ بنشأة علمية وروحية داخل بيئة صوفية، ويمرّ بتجربة القيادة العسكرية وتأسيس كيان سياسي، ثم ينتهي إلى لحظة الأسر والتحول إلى رمز إنساني عالمي، يدرك أننا لسنا أمام تسلسل وقائعي محض، بل أمام بنية سردية كامنة تتجاوز حدود التاريخ نحو أفق درامي أكثر شمولا .

ومن هذا المنطلق، يمكن استحضار نموذج "رحلة البطل" الذي صاغه جوزيف كامبل، لا بوصفه قالبًا جاهزا لإسقاطه على السيرة، بل كأداة تحليلية تكشف عن انتظام داخلي في التجربة الإنسانية .

يقوم هذا النموذج على تصور كوني للسرد، حيث تمر الشخصية بثلاث حركات كبرى الانطلاق من عالم مألوف، ثم الدخول في فضاء الاختبار والتحول، قبل العودة محمّلة بتجربة جديدة تعيد تعريف علاقتها بذاتها وبالعالم .

وتكمن أهمية هذا التصور في كونه لا يختزل الحكاية في بعدها الخارجي، بل يركز على التحول الداخلي باعتباره جوهر التجربة . وإذا ما تم إسقاط هذا الإطار بشكل مرن على سيرة الأمير عبد القادر، أمكن رصد ملامح هذه الرحلة بوضوح نسبي .فمرحلة "العالم العادي" تتجلى في نشأته ضمن محيط علمي وروحي، حيث تشكل وعيه الديني والمعرفي، بينما تمثل لحظة الاحتلال الفرنسي "نداء المغامرة" الذي يدفعه إلى مغادرة هذا العالم والانخراط في فعل المقاومة .

أما عبور العتبة فيتحقق من خلال توليه قيادة الجهاد وتنظيمه لبنية سياسية وعسكرية، لينخرط بعدها في سلسلة من الاختبارات المعقدة، تتراوح بين المواجهة العسكرية وإدارة التحالفات، والتعامل مع الضغوط الداخلية والخارجية . غير أن أهمية هذه القراءة لا تكمن في مطابقة المراحل بقدر ما تكمن في إبراز لحظة التحول، التي تشكل قلب النموذج الكامبلي ففي تجربة الأسر التي قد تُقرأ تاريخيًا كهزيمة، تنفتح إمكانية تأويل مغايرة، حيث يتحول البطل من فاعل عسكري إلى فاعل أخلاقي وفكري، يعيد تعريف مفهوم القوة خارج منطق الغلبة.

وهنا بالذات يتجلى البعد الكوني للتجربة، إذ تنتقل من خصوصية الصراع المحلي إلى أفق إنساني أوسع، يجعل من سيرة الأمير عبد القادر تجربة قابلة لإعادة القراءة في سياقات متعددة .

وعليه، فإن استدعاء نموذج "رحلة البطل" لا يهدف إلى قولبة السيرة التاريخية داخل بنية أسطورية، بل إلى الكشف عن الطاقة السردية الكامنة فيها، بما يسمح بإعادة تمثيلها خصوصا في السينما ضمن بناء درامي يُحافظ على تعقيدها، وفي الآن ذاته يمنحها قابلية للتلقي الكوني .

ومن هنا تبرز أهمية الانتقال من النظر إلى الشخصية بوصفها "بطلا تاريخيًا" إلى مقاربتها كـ "تجربة إنسانية" تتقاطع مع أسئلة الوجود الكبرى، وهو ما يشكل المدخل الأساس لمنحها بعدًا عالميًا داخل الخطاب السينمائي.

2. نموذج بروب

إذا كان نموذج "رحلة البطل" عند جوزيف كامبل يتيح قراءة سيرة الأمير عبد القادر من زاوية التحول الداخلي والبنية الكونية للتجربة، فإنّ الانتقال إلى المقاربة المورفولوجية عند فلاديمير بروب يفتح أفقًا تحليليا مغايرا، يقوم على تفكيك الحكاية إلى وظائف سردية دقيقة تنتظم وفق تتابع بنيوي شبه ثابت .فبروب، في دراسته للحكاية الشعبية، لم ينشغل بمضمون الأحداث بقدر ما ركز على "ما تفعله الشخصيات" داخل السرد، أي على الوظائف التي تؤديها في بناء الحكاية .

ينطلق هذا التصور من وضعية ابتدائية يسود فيها نوع من التوازن، سرعان ما يتعرض لاختلال بفعل حدث طارئ، لتتوالى بعد ذلك سلسلة من الأفعال والوظائف (كالاستدعاء، والمواجهة، والاختبار، والمكافأة)، وصولا إلى استعادة شكل من أشكال التوازن .وعلى الرغم من أن بروب اشتغل أساسا على الحكايات الخرافية، فإن القيمة المنهجية لنموذجه تكمن في قابليته للتطبيق على مختلف الأجناس السردية، بما فيها السيرة التاريخية، شريطة التعامل معه كأداة تحليلية لا كقالب جامد .

وبالعودة إلى سيرة الأمير عبد القادر، يمكن رصد هذا التنظيم الوظيفي بوضوح نسبي . فالوضعية الابتدائية تتمثل في حالة الاستقرار النسبي التي عاشها المجتمع قبل الاحتلال، حيث كان الأمير منخرطا في مسار علمي وروحي. غير أن دخول الاستعمار الفرنسي يشكل "لحظة الاختلال" التي تخلخل هذا التوازن، وتستدعي سلسلة من الاستجابات السردية. هنا يظهر الأمير بوصفه فاعلا مركزيا يؤدي وظيفة "البطل"، في حين تتجسد قوى الاحتلال في وظيفة "الخصم"، وتتوزع باقي الأدوار بين حلفاء ووسطاء وقوى مساعدة، بما يعكس تعددية الفاعلين داخل الحدث التاريخي .

وتتوالى بعد ذلك الوظائف السردية في شكل أفعال نضالية متعاقبة من تنظيم المقاومة، إلى خوض المعارك، إلى عقد التحالفات، وهي كلها تمثل استجابات لمحاولة استعادة التوازن المفقود . غير أن ما يميز هذا المسار، مقارنة بالحكاية الخرافية، هو أن استعادة التوازن لا تتحقق بالضرورة في بعدها المادي المباشر، بل تتخذ شكلا رمزيًا وأخلاقيًا، خاصة مع تجربة الأسر التي تعيد توجيه مسار الشخصية نحو أفق مغاير .

ومن هنا تكمن أهمية استحضار نموذج بروب في كونه يسمح بتفكيك السيرة التاريخية إلى وحدات وظيفية تكشف عن منطقها الداخلي، بعيدًا عن القراءة الخطية التي تكتفي بسرد الأحداث . كما يتيح هذا النموذج إبراز البعد الجماعي في الحكاية، من خلال تعدد الأدوار والوظائف، وهو ما يشكل تصحيحا ضمنيا للنزعة الفردية التي قد تهيمن في بعض المقاربات الدرامية .

وعليه، فإنّ توظيف المقاربة المورفولوجية لا يهدف إلى مطابقة سيرة الأمير عبد القادر مع الحكاية الخرافية، بل إلى الكشف عن البنية الفعلية التي تنتظم وفقها الأحداث، بما يفتح المجال أمام إعادة بنائها سينمائيا ضمن تصور أكثر تركيبا، يجمع بين الفعل التاريخي ووظيفته السردية، ويمنح الحكاية عمقًا يتجاوز ظاهر الوقائع إلى منطقها البنيوي الكامن.

3. نموذج تودوروف

إذا كانت المقاربة المورفولوجية عند فلاديمير بروب قد أتاحت تفكيك السيرة إلى وظائف سردية تبرز منطق الفعل داخل الحكاية، فإنّ الانتقال إلى النموذج السردي الذي اقترحه تزفيتان تودوروف يقدم منظورًا أكثر تجريدًا، يقوم على تتبع دينامية التوازن والاختلال داخل البنية الحكائية .فالسرد، وفق هذا التصور، لا يُفهم من خلال تعاقب الأفعال فحسب، بل من خلال حركة أساسية تتكوّن من خمس مراحل حالة توازن أولى، يطرأ عليها اختلال، ثم إدراك لهذا الاختلال، يعقبه سعى لإصلاحه، لينتهي الأمر باستعادة توازن جديد يختلف عن سابقه .

وتكمن أهمية هذا النموذج في بساطته النظرية وقدرته على احتواء مختلف الأشكال السردية، بما فيها السيرة التاريخية، حيث لا يُنظر إلى الحدث باعتباره معطى معزولاً، بل كجزء من حركة أوسع تعيد تشكيل العلاقات داخل العالم السردي .

وفي هذا الإطار، يمكن قراءة سيرة الأمير عبد القادر بوصفها مسارًا ديناميا ينتقل من توازن إلى آخر، عبر سلسلة من التحولات العميقة . فالتوازن الأولي يتجسد في البنية الاجتماعية والدينية التي نشأ فيها الأمير، حيث كان مندمجا في نظام معرفي وروحي مستقر نسبيًا .

غير أنّ هذا التوازن يتعرض لاختلال جذري مع دخول الاستعمار الفرنسي، الذي لا يغيّر فقط موازين القوة، بل يعيد تشكيل معنى السيادة والوجود الجماعي .

ويأتي إدراك هذا الاختلال في شكل وعي تاريخي يتبلور لدى الأمير، يدفعه إلى الانتقال من موقع المتلقي إلى موقع الفاعل، عبر تبني مشروع المقاومة .

أما مرحلة السعي نحو الإصلاح، فتتجلى في مجمل الأفعال التي قام بها الأمير، من تنظيم عسكري وسياسي، إلى إدارة الصراع ضمن شروط معقدة، حيث يصبح الهدف ليس فقط مواجهة الاختلال، بل إعادة بناء شكل من أشكال التوازن الممكن . غير أن هذا المسار لا ينتهي بعودة بسيطة إلى الحالة الأولى، بل يقود إلى توازن جديد يتشكل بعد تجربة الأسر، حيث يحدث تحول نوعي في موقع الشخصية ووظيفتها .

وهنا تتجلى خصوصية هذا النموذج في قدرته على استيعاب فكرة "التحول"، إذ لا تعني استعادة التوازن العودة إلى ما كان، بل الانتقال إلى وضعية جديدة أكثر تعقيدًا . ففي حالة الأمير عبد القادر، لا يتمثل التوازن الجديد في استعادة السلطة السياسية، بل في إعادة تعريف الذات ضمن أفق إنساني وفكري يتجاوز حدود الصراع العسكري ليؤسس لمعنى آخر للوجود والقوة .

وعليه، فإن نموذج تودوروف يتيح قراءة السيرة التاريخية بوصفها حركة مستمرة بين الاختلال وإعادة التشكيل، وهو ما يمنحها بعدا ديناميا يمكن استثماره سينمائيًا في بناء سرد لا يقوم فقط على تعاقب الأحداث، بل على توتر دائم بين ما هو قائم وما ينبغي أن يكون . وبهذا المعنى، تصبح سيرة الأمير عبد القادر فضاء سرديًا مفتوحًا، تتقاطع فيه تحولات التاريخ مع تحولات المعنى، في أفق يعيد صياغة العلاقة بين الإنسان والعالم .

4. نموذج سيد فيلد

وإذا انتقلنا من النماذج البنيوية والوظيفية إلى المقاربة الدراماتورجية الحديثة، فإن نموذج سيد فيلد في بناء السيناريو السينمائي يُعد من أكثر النماذج تأثيرًا في هندسة السرد السينمائي المعاصر، خاصة في كتابة سينما السيرة الذاتية والأفلام التاريخية .

يقوم هذا النموذج على تقسيم السرد إلى بنية ثلاثية: بداية(Setup) ، وسط(Confrontation) ، ونهاية (Resolution)، مع لحظات مفصلية تُعرف بـ "نقاط التحول الدرامي" التي تعيد توجيه مسار الحكاية .

تكمن أهمية هذا التصور في كونه لا يشتغل على مستوى الحكاية بوصفها سلسلة أحداث فقط، بل بوصفها بناءً دراميًا محكما يُدار وفق إيقاع تصاعدي قائم على التوتر والانتقال والتحول .

فالبداية تخصص لتقديم العالم والشخصيات وبناء الوضعية الأولية، بينما يتجه الجزء الأوسط إلى تعميق الصراع وتكثيف المواجهة، في حين يفضي الجزء النهائي إلى تفكيك التوتر وإعادة تشكيل المعنى الدرامي للحكاية .

وعند إسقاط هذا النموذج على سيرة الأمير عبد القادر، يمكن ملاحظة أن مرحلة "البداية" تتجلى في تقديم شخصية الأمير داخل بيئة علمية وروحية متماسكة، حيث تتشكل ملامح شخصيته القيادية والفكرية قبل الدخول في المجال الصراعي .

أما نقطة التحول "الأولى" فتتمثل في لحظة اندلاع الاحتلال الفرنسي، التي تنقل السيرة من مستوى التكوين الفردي إلى مستوى الفعل التاريخي، لتبدأ بذلك مرحلة الوسط" التي تتسم بتصاعد المواجهة وتعدد مستويات الصراع، سواء على المستوى العسكري أو السياسي أو الدبلوماسي .

وفي هذه المرحلة الوسطى، تتكثف الدراما عبر سلسلة من المنعطفات الحاسمة تنظيم المقاومة، بناء الدولة، إدارة التحالفات، ثم مواجهة التفوق العسكري الفرنسي، وهو ما يعكس منطق التصعيد الذي يشكل جوهر البناء الدرامي عند سيد فيلد . ثم تأتي نقطة التحول الثانية المتمثلة في لحظة الأسر، التي تعيد توجيه مسار الحكاية بشكل جذري، لتنفتح مرحلة النهاية على بعد مختلف لا يقوم على الفعل العسكري، بل على التحول الرمزي والإنساني في شخصية الأمير .

ففي هذه الخاتمة، لا تُغلق السيرة على انتصار تقليدي أو هزيمة نهائية، بل على إعادة تعريف للذات داخل أفق أوسع من الصراع، حيث يتحول الأمير من قائد عسكري إلى رمز أخلاقي وإنساني يتجاوز السياق التاريخي المباشر . وهنا يظهر بوضوح كيف أن نموذج سيد فيلد لا يفرض شكلا خارجيًا على السيرة، بل يساعد على تنظيم توترها الداخلي داخل بناء درامي قابل للعرض السينمائي .

وعليه، فإن توظيف هذا النموذج في قراءة السيرة التاريخية يتيح تحويلها إلى خطاب سينمائي متماسك، يقوم على التصعيد الدرامي، ونقاط التحول، والبناء الثلاثي، بما يسمح بإعادة إنتاج الشخصية التاريخية ضمن شكل بصري قادر على الجمع بين الإقناع التاريخي والتأثير العاطفي، وهو ما يرسخ إمكانية تقديم سيرة الأمير عبد القادر كعمل سينمائي عالمي البنية، إنساني الدلالة، ودرامي التكوين .

5. نموذج روبرت مكي

في سياق تعميق المقاربة الدراماتورجية للسيرة التاريخية، يبرز نموذج روبرت مكي في كتابه The Story بوصفه أحد أكثر التصورات دقة في تحليل منطق السرد السينمائي الحديث، حيث يتجاوز البنية الثلاثية التقليدية نحو فهم أكثر تركيبا للحكاية باعتبارها نظامًا من الأحداث المتسببة(Causally Related Events) ، تتطور فيه القصة عبر اختيارات الشخصيات وصراعاتها الداخلية والخارجية، لا عبر تعاقب زمني بسيط .

يرتكز تصور مكي على فكرة أساسية مفادها أن القصة السينمائية لا تقوم على "ما يحدث" فقط، بل على "لماذا يحدث" و "كيف يتغير المعنى عبر الحدث ."

ومن ثم، فإن جوهر السرد عنده يتمثل في سلسلة من التحولات (Turning Points) التي تنتج تغييرات في وضعية الشخصية، وفي وعيها، وفي علاقتها بالعالم . كما يولي أهمية مركزية لمفهوم "القيمة الدرامية (Dramatic Value)"، أي التحول من حالة إيجابية إلى سلبية أو العكس، باعتبارها المحرك الحقيقي للتوتر السردي .

وعند مقاربة سيرة الأمير عبد القادر وفق هذا المنظور، فإن التركيز لا ينصب فقط على ترتيب الأحداث التاريخية، بل على منطق التحول الذي يحكمها . فاندلاع الاحتلال الفرنسي لا يُقرأ كحدث افتتاحي فحسب، بل كتحول جذري في القيمة الدرامية من الاستقرار إلى الاضطراب، ومن السيادة إلى التهديد، وهو ما يدفع الشخصية إلى اتخاذ قرارات متتالية تُعيد تشكيل مسارها التاريخي .

في هذا الإطار، تصبح كل مرحلة من مراحل المقاومة سلسلة من الاختيارات المشروطة بالضغط التاريخي، حيث لا يتحرك الأمير كفاعل خارجي فقط، بل كذات تعيد تعريف نفسها باستمرار عبر الفعل . فالمعارك، والتحالفات، وإعادة تنظيم المقاومة، ليست مجرد وقائع بل نقاط تحول تعيد صياغة العلاقة بين الإرادة الفردية والواقع الموضوعي، وفق منطق سببي صارم ينسجم مع تصور مكي للسرد .

وتبلغ هذه الدينامية ذروتها في تجربة الأسر التي لا تفهم بوصفها نهاية خطية، بل بوصفها انقلابًا في مسار القيم الدرامية من الفعل إلى التأمل، ومن القيادة العسكرية إلى التحول الأخلاقي والروحي . وهنا تتجلى إحدى أهم أطروحات مكي، وهي أن القصة الحقيقية ليست في الوصول إلى النهاية، بل في طبيعة التحول الذي يطرأ على معنى الشخصية عبر الزمن السردي .

وعليه، فإن تطبيق نموذج The Story على السيرة التاريخية للأمير عبد القادر يسمح بإعادة قراءتها بوصفها منظومة من التحولات السببية المتراكبة، حيث تتداخل الإرادة الفردية مع ضغط التاريخ ويصبح كل حدث نتيجة حتمية لاختيارات سابقة، وفي الوقت نفسه مقدمة لتحولات لاحقة .

وبهذا المعنى لا تقدم السيرة كخط زمني ثابت، بل كبنية ديناميكية مفتوحة على إعادة التفسير، وهو ما يمنحها قابلية عالية للترجمة السينمائية ضمن خطاب عالمي قادر على استيعاب التعقيد التاريخي دون فقدان عمقه الإنساني .

6. نموذج فوغلر

في امتداد المقاربات السردية المعاصرة، يقدم كريستوفر فوغلر نموذجا تطبيقيًا مباشرا مستلهما من تصور جوزيف كامبل، لكنه موجه بشكل خاص إلى الممارسة السينمائية، من خلال كتابه .The Writer's Journey ويقوم هذا النموذج على تبسيط "رحلة البطل" إلى اثنتي عشرة مرحلة درامية تستعمل كخريطة عملية لكتابة السيناريو، مع تركيز أكبر على التحولات النفسية والدرامية داخل بنية الفيلم .

تبدأ هذه الرحلة بـ "العالم العادي"، حيث تُقدّم الشخصية في سياقها الطبيعي قبل الصراع، ثم "نداء المغامرة" الذي يُدخلها في مواجهة مع حدث مُغيّر لمسار حياتها . يعقبه "رفض النداء" بوصفه لحظة تردد إنساني، ثم "لقاء المرشد" الذي يزوّد البطل بالأدوات المادية أو المعنوية اللازمة لعبور المرحلة التالية . بعد ذلك تأتي مرحلة "عبور العتبة"، حيث ينتقل البطل إلى عالم جديد تحكمه قوانين مختلفة، ليبدأ بعدها في مواجهة سلسلة من الاختبارات، الحلفاء، والأعداء"، وصولاً إلى الاقتراب من الكهف الأعمق" حيث يكمن جوهر الصراع .

وتتوج الرحلة بـ "الامتحان الأعظم" الذي يمثل لحظة الأزمة القصوى، ثم "المكافأة"، فـ"طريق العودة"، وصولا إلى العودة المتحولة"، حيث يعود البطل إلى عالمه الأول لكنه محمل بتجربة تغير وعيه وموقعه داخل العالم. وتكمن أهمية هذا النموذج في مرونته العالية وقدرته على التكيف مع مختلف أنواع القصص، بما فيها السيرة التاريخية، دون فقدان وضوحه البنيوي .

وعند إسقاط هذا التصور على سيرة الأمير عبد القادر، يمكن ملاحظة أن "العالم العادي" يتمثل في نشأته العلمية والروحية داخل بيئة مستقرة نسبيًا، بينما يشكل "نداء المغامرة" لحظة الاجتياح الاستعماري الذي يفرض عليه الانتقال من موقع العالم إلى موقع الفاعل التاريخي . أما "رفض النداء" فيتجلى ضمنيًا في ثقل المسؤولية التاريخية التي تسبق قرار القيادة، قبل أن يتجسد "لقاء المرشد" في منظومة القيم الدينية والمعرفية التي شكلت وعيه .

ويأتي "عبور العتبة" مع توليه قيادة المقاومة، حيث يدخل عالم الصراع المفتوح، لتبدأ سلسلة من الاختبارات" المتمثلة في المعارك، وبناء الدولة، وإدارة التوازنات السياسية والعسكرية . وتشكل مرحلة الاقتراب من الكهف الأعمق" لحظة اشتداد الصراع، حيث تتكثف التحديات الداخلية والخارجية وصولا إلى الامتحان الأعظم" المتمثل في الهزيمة والأسر، الذي يعيد تعريف موقع الشخصية بالكامل .

أما "المكافأة" فتتجلى في التحول الرمزي الذي يطرأ على شخصية الأمير، حيث تنتقل من الفعل العسكري إلى البعد الأخلاقي والإنساني، بينما تتمثل "طريق العودة" في إعادة إدماجه داخل سياقات دولية جديدة، وصولاً إلى

العودة المتحولة" التي لا تعني العودة الجغرافية، بل العودة الرمزية كشخصية تجاوزت حدود الصراع المحلي لتصبح رمزًا عالميًا للتسامح والمروءة .

وعليه، فإن نموذج فوغلر يتيح قراءة السيرة التاريخية للأمير عبد القادر بوصفها رحلة درامية مكتملة العناصر، لكنها أكثر مرونة وواقعية من النموذج الأسطوري الأصلي، حيث يقدّم أدوات عملية تساعد على تحويل المادة التاريخية إلى بناء سينمائي واضح المراحل، دون التفريط في العمق الإنساني أو التعقيد التاريخي .

ومن هنا تتأكد قابلية هذه السيرة للتحول إلى خطاب سينمائي عالمي، يستند إلى بنية مألوفة دراميًا، لكنه يحتفظ بخصوصيته الحضارية والتاريخية .

7. نموذج جون تروبي

في سياق المقاربات السردية المعاصرة التي تسعى إلى تفكيك البنية العميقة للحكاية، يبرز تصور جون تروبي في كتابه The Anatomy of Story بوصفه أحد أكثر النماذج تركيبا وابتعادًا عن البنية الخطية التقليدية .

إذ لا يكتفي تروبي بتقسيم القصة إلى مراحل زمنية، بل ينظر إليها باعتبارها "نظامًا عضويًا" تتفاعل فيه الشخصية مع عالمها عبر شبكة من العلاقات الأخلاقية والصراعات الداخلية والخارجية حيث يصبح جوهر السرد هو رحلة التحول الأخلاقي وليس مجرد تطور أحداث .

ينطلق تروبي من فكرة مركزية مفادها أن كل قصة ناجحة تقوم على "حاجة داخلية "(Internal Need) تدفع الشخصية نحو تغيير جذري في وعيها وقيمها، بالتوازي مع هدف خارجي (External Goal) يحرك الأحداث على المستوى الظاهر .

وبين هذين البعدين تتشكل بنية درامية معقدة، تقوم على 22 خطوة سردية، تبدأ بتحديد الجرح أو النقص الأساسي في الشخصية، وتنتهي بتحقق التحول النهائي الذي يعيد تعريف ذاتها وعلاقتها بالعالم .

وعند مقاربة سيرة الأمير عبد القادر من هذا المنظور، فإن نقطة الانطلاق لا تتمثل فقط في السياق التاريخي لظهور الاحتلال الفرنسي، بل في البنية الداخلية للشخصية نفسها، التي تتشكل من توازن بين تكوين علمي وروحي عميق، وبين استعداد تاريخي لتحمل مسؤولية القيادة . غير أن دخول الاستعمار يشكل "الجرح السردي" الأكبر الذي يخلخل هذا التوازن، ويفرض على الشخصية إعادة تعريف ذاتها في ضوء واقع جديد كليا .

في هذا السياق، يمكن تمييز "الهدف الخارجي" في سعي الأمير إلى تنظيم المقاومة وبناء كيان سياسي قادر على مواجهة التفوق العسكري الفرنسي، بينما يتجلى "البعد الداخلي" في التحول التدريجي في وعيه، من قائد

عسكري يسعى إلى النصر، إلى شخصية تعيد التفكير في معنى القوة، والشرعية والعدالة داخل سياق تاريخي معقد .

وهنا تصبح المعارك، والتحالفات، والقرارات السياسية، ليست مجرد أفعال تاريخية، بل مراحل في مسار تحول أخلاقي وفكري متدرج . ويبلغ هذا التحول ذروته في تجربة الأسر التي يمكن قراءتها وفق منطق تروبي باعتبارها لحظة كشف داخلي(Self-Revelation) ، حيث لا تنتهي الحكاية بهزيمة سياسية، بل بانكشاف أعمق لمعنى الذات وموقعها في العالم .

ففي هذه المرحلة، يتجاوز الأمير منطق الصراع العسكري نحو أفق إنساني يقوم على التسامح وإعادة تعريف العلاقة مع الآخر، وهو ما يشكل التحول الأخلاقي النهائي الذي يمنح السيرة بعدها الكوني .

وعليه، فإن نموذج تروبي يضيف إلى المقاربات السابقة بعدًا حاسمًا يتمثل في مركزية البنية الأخلاقية للسرد، حيث لا تفهم الشخصية من خلال أفعالها فقط، بل من خلال التناقض الداخلي الذي يحكم مسارها نحو التغيير .

وبهذا المعنى، تصبح سيرة الأمير عبد القادر ليست مجرد رحلة مقاومة، بل رحلة إعادة تشكيل للذات في مواجهة التاريخ، وهو ما يمنحها قابلية عالية للترجمة السينمائية بوصفها قصة تحول إنساني عميق يتجاوز حدود الزمان والمكان

خاتمة:

تخلص هذه الدراسة إلى أن سيرة الأمير عبد القادر الجزائري لا تمثل حالة تاريخية استثنائية عصية على التمثيل السينمائي، بل على العكس، تشكل نموذجاً مثالياً لما يمكن تسميته بـ "قابلية التشكل السينمائي".

فهذه السيرة، بما تحمله من غنى تاريخي وروحي، تُظهر استعداداً بنيوياً للانخراط في منطق الحكاية، حيث تنصاع الوقائع – لا قسراً، بل عبر إعادة تنظيمها التأويلي – لقوانين المورفولوجيا السردية، فتتحول من سردية توثيقية محلية إلى ملحمة إنسانية ذات أفق كوني.

وقد بينت الدراسة أن اعتماد بنية هجينة، تجمع بين التحليل المورفولوجي كما عند فلاديمير بروب وتزفيتان تودوروف، والبنية الأسطورية لرحلة البطل كما صاغها جوزيف كامبل، إلى جانب التصورات الدرامية عند سيد فيلد، والرؤية البصرية كما عند روبرت مكي وجون تروبي، يتيح مقاربة منهجية قادرة على تجاوز الإشكال الإبستمولوجي والجمالي الذي يلازم سينما السيرة التاريخية.

فهذه المقاربة لا تسعى إلى المفاضلة بين الأمانة التاريخية ومتطلبات الدراما، بل إلى تحقيق توازن خلاق بينهما، عبر إعادة بناء الوقائع ضمن بنية سردية تمنحها قابلية للتلقي العالمي دون أن تفقد خصوصيتها.

وتكشف النتائج المنهجية التي تم التوصل إليها عن ثلاث خلاصات أساسية.

أولاً، أن السيرة التاريخية لا ينبغي التعامل معها كمعطى ثابت أو موضوع مكتمل، بل كمادة أولية قابلة لإعادة التشكيل، تكتسب معناها الجمالي من خلال انخراطها في بنية درامية محكمة.

ثانياً، أن التوفيق بين الصدق التاريخي والجاذبية الدرامية ليس فقط ممكناً، بل ضرورياً، ويتحقق عبر اختيار لحظات مفصلية من السيرة – مثل مبايعة 1832 أو معاهدة تافنة – وإعادة تأويلها ضمن مسار تحولي يفضي إلى ذروة ذات بعد إنساني كوني، كما يتجلى في التجربة الصوفية.

ثالثاً، أن النموذج الجماعي – الروحي الذي تقدمه سيرة الأمير يفتح أفقاً بديلاً للنموذج الفردي الغربي، خاصة في سياق تمثيل تجارب المقاومة، حيث تتداخل الذات الفردية مع الجماعة ضمن أفق قيمي مشترك.

انطلاقاً من ذلك، تقترح الدراسة جملة من التوصيات العملية، في مقدمتها تطوير مشروع سينمائي جديد يستثمر هذه البنية الهجينة، من خلال إعادة تصور سيرة الأمير في شكل رحلة "الحكيم"، بما يسمح بتحقيق توازن بين البعد الملحمي والجاذبية الجماهيرية من جهة، والعمق الروحي والثقافي من جهة أخرى.

كما توصي بإمكانية توسيع هذه المقاربة لتشمل سيراً تاريخية أخرى، مثل صلاح الدين الأيوبي وعمر المختار، بما يسهم في بناء نموذج منهجي قابل للتعميم داخل السينما العربية.

إضافة إلى ذلك، تفتح الدراسة أفقاً لبحوث مستقبلية تستهدف تطبيق هذا النموذج على تجارب سينمائية إفريقية، خاصة تلك المرتبطة بسرديات المقاومة والاستعمار.

وعلى المستوى الثقافي، تسهم هذه المقاربة في إعادة صياغة الميثولوجيا الجزائرية ضمن أفق كوني حيث يُعاد تقديم الأمير عبد القادر لا بوصفه مجرد قائد تاريخي محلي، بل كـ "حكيم كوني" يجسد تداخلاً فريداً بين الجهاد الصوفي والقيم الإنسانية الشاملة.

وهو ما يمنح السيرة بعداً يتجاوز حدودها الجغرافية لتصبح قابلة للتداول والتأويل عبر ثقافات متعددة.

وفي المحصلة، تؤكد هذه الدراسة أن القيمة الحقيقية للسيرة التاريخية لا تكمن في دقتها الواقعية فحسب، بل في قدرتها على التحول إلى خطاب بصري ذي بعد إنساني شامل.

فحين تخضع الوقائع المنطق التأويل الدرامي، دون أن تفرغ من سياقها، فإنها تكتسب حياة جديدة داخل الصورة، وتتحول إلى ملحمة قادرة على تحقيق ذلك التوازن الدقيق بين الصدق التاريخي والجاذبية الجمالية، وهو التوازن الذي يشكل في نهاية المطاف، جوهر الفعل السينمائي ذاته.

8. الإحالات وقائمة المراجع:

- بروب، ف. (1928). صورة الحكاية الشعبية. يونيفرسيتي أوف تكساس بريس (طبعة 1968).
- تريبي، ج. (2007). تشريح القصة: 22 خطوة لتصبح راوي قصص محترفًا. فابر آند فابر.
- تودوروف، ت. (1977). شعرية النثر. كورنيل يونيفرسيتي بريس.
- فيلد، س. (1979). سيناريو: أسس كتابة السيناريو. دلتا.
- فوغلر، ك. (1992). رحلة الكاتب: البنية الأسطورية للكتاب. مايكل ويز برودكشنز.
- فيرّو، م. (1988). السينما والتاريخ. وين ستيت يونيفرسيتي بريس.
- كامبل، ج. (1949). البطل ذو الألف وجه. نيو وورلد لايبراري.
- ماكي، ر. (1997). القصة: الجوهر والبنية والأسلوب ومبادئ كتابة السيناريو. هاربر كولينز.
- روزنستون، ر. أ. (2006). التاريخ في السينما / السينما في التاريخ. بيرسون لونغمان.

مواقع الانترنيت:

- الوثائقي "الأمير عبد القادر" (الجزيرة، 2016).
- الوثائقي "عبد القادر" (الوكالة الوطنية للإشعاع الثقافي الجزائرية).
- ملتقى "الأمير عبد القادر: بين الحقيقة التاريخية وإمكانات التجسيد السينمائي" (جامعة قسنطينة، 2026).
- مقالة ويكيبيديا: "مقاومة الأمير عبد القادر."